سيرة الحبر الطيّب الذكر

عبدالله قراعلي الماروني الحلبي

للقس توما البودي نشرها بالطبع لاوّل مرّة وعلّق حواشيها الاب انطون رباط اليسوعي (تابع)

وحين كان يتردّد لدير مار يوحنا رشميا كان يعظ احياناً في الكنيسة القريبة الى الدير المذكور في قرية رشميا ومن قبل وعظه ونظر اهل القرية الى سيرته كانوا يعتبرونه بمنزلة قديس من غير ريب. فاتفق يوماً لرجل منهم لهُ ولد ابن ثلث سنين انهُ ركّبهُ على حمار وفات بهِ قريباً من الدير وكان عبدالله موجوداً بوقتها في الدير. فابتدا الحمار ان يعنطز ويركض والصبي راكب فوقهُ وحده . فخاف ابوه عليهِ وابتدا يستغيث بالقديسين. اخيراً رمى الحمار للصبي على رجمة حجار فصاح ابوه باعلى صوته : يا صلاة الرئيس عبدالله . وركض نحو الصبي وفي ظنه انهُ تحطّم على الحجار . واذ دنا منهُ وكلمه اجابهُ الصبي وهو ضاحك من غير ان يتأذى فيهِ شيء اصلاً كانهُ وقع على فراش ريش. فحملهُ ابوه من ساعته وادخله الى الدير ليزوّره الكنيسة ووضعه امام عبدالله وطلب منهُ يصلي عليهِ واخبرهُ بالحادث فاجابهُ عبدالله: ان القديس يوحنا صاحب الكنيسة هو الذي حرسه . وبعد ان صلى على الصبي صرفه . وكان ابو الصبي يذيع هذا الخبر عند كل من يراه

ولنرجع الى قوله السابق عن التجربة وموت الرهبان قتلاً الذي خبرنا عنهُ سابقاً . فبعد مدّة قليلة صار زمان المجمع لقيام رئيس عام فدعا الرهبان الى المجمع (١ ولمّا التأم المجمع ترامى على جمهور الرهبان المجمعين للقرعة ان يقيموا رئيساً عاماً غيره لمن يريدون لان مراده ان يروح الى الحبسة التي كان هو انشأها قبال دير قزحيا في عربتا (٢ بزعمه

---

١) التأم هذا المجمع في تشرين الثاني سنة ١٧١٤

٢) قال الاب عبدالله قراعلي : « وفي هذه السنة (١٧١٦) تحرك قلب البعض من الاخوة الكهنة لطلب السكوت والانفراد وهذه كانت شهوة المرحوم القس يوسف البتن فطاوعتهم الى ذلك وافردتهم الى مكان في وادي قزحيا يُعرف بعربتا . وكان عددهم اثنين واسمهما الواحد اغطونيوس وهو شيخ يُعرف بابن مبارك والاخر شاب يعرف بابن شوشان وضيقت عليهما القانون

انهُ يريد ان يقام رئيس عام على الرهبنة غيره في زمانه لينظر التدبير وبهذا النوع كان يتوسل الى الرهبان ويعدهم انهُ ولو كان في المحبة ما يتخلّى عن رشدهم ورشد رؤساهم في القانون. وايضاً كان يقول: هكذا الله طالب مني. فمن زود لجاجته على الرهبان بما ذكر اخفوا راياتهم وكان جواب اكثرهم: فلتكن مشيئة الله ومجده الذي هو غاية المراد. وفي حين القرعة وكشفها ما ظهر ولا ورقة بغير اسم عبدالله. فاهطل الدموع مستغيثاً بالله لاجل التجارب المزمعة ان تظهر وهي في مقله. اما الرهبان فصرخوا بصوتٍ واحد نحوه: انك ما دمت في الحياة ما يكون رئيس غيرك والذي دبرك الى الان يدبر اولادك بعدك. وبعد انتهاء المجمع كان جميع الرهبان فرحين برئيسهم. اما الفرح الروحي الذي كان بينهم فانا عاجز عن وصفه

وبعد ذلك اجتمع مع مدبريه وكان حزيناً جداً. فالبعض كانوا يظنون ان حزنه لانهُ أُقيم رئيساً وما سلك كلامه في قبول المحبة فقط ولكن قد اطلع الذي اطلعه سابقاً على تجربة الرهبنة والقتل بقوله لهُ هكذا: يا فلان في تجربة أُخرى مزمعة ان تصير وهي امرّ من الاولى التي اخبرتك بها وهي سيف ذو حدين اي اما عصاوة الله وبعته او خراب الرهبنة وتبديد الرهبان. اما في هذه الثانية أموت حالاً. واما الاولى فليس منها مهرب (١

وبعد انتهاء كافة الاشغال التي تخص المجمع وغيره نزلت انا الى طرابلس لكي اذهب (اركب؟) الرؤساء الذين تسيّوا الى ديورة كسروان وغيرهم الذين انعزلوا وكانوا ماضين

اكثر مناً هو في الدير وسلمتها الكرم الذي هو امام عابسها ليسلا ويقاتلا الضجر وبنيا لها قلاية جعلاها كنيسة على اسم مار يوحنا اول المنفردين فكان مماشيها من دير الاخوة عرض تسعها » وقد اسعدنا الحظ فزرنا دير قزحيا منذ اشهر قليلة فتأكدنا بالمُخبر بعد الخبر ما ذكرهُ صاحب النبذة عن عدد الضيوف والزوار القادمين زرافات طالبين ضيافة ابي الرهبان ولقينا من حضرة الرئيس ومن رهبانه أكرم الضيافة واطيب الخصال وزرنا محبة مار يوحنا تجاه الدير فرأينا فيها راهبين منفردين يعيشان عيشة الابرار قدوة لكل من رآهما. وقد ذكر المؤرخون محبة مار يشاي بالقرب من الدير وهي الان مهجورة وكان قد سكنها جبرائيل فرحات في بعض سنة ١٧١٢ (المشرق ٧: ١٠٧) وغير بعيدة من الدير محبة مار ميخائيل القديمة وهي مهجورة ايضاً (المشرق ٩: ٣٦٣-٣٦٥)

١) اطلب سلسلة بطاركة الطائفة المارونية (ص ١٦١) ومن تصفح ديوان فخر زمانه السيد

لكي يسلموا لاولئك. وبما اني كنت مباشراً عمارة الطاحون التي في الزاوية(١ التزمت اتفرّق هناك يومين. وفي صباح احد الايام اتاني مرسال من قبل الاب العام لاتوجه حالاً الى عنده ويخبرني انهُ سقط صخر عظيم من الجبل على دير قزحيا وقتل البعض من الرهبان تحت الردم من غير ان يشرح لي من هم وكيف صار الامر لان المرسال توجه الى عندي حال ما صار الخراب من غير انهم يعرفوا من هو الطيب ومن هو المائت (٢ وبما ان الرهبان المتوجهين الى كسروان كانوا في المدينة ناطرين حضوري لكي اذهبهم(٣ كما ذُكر فحالاً توجّهت الى المدينة وعزّلت الاطوش حذراً من حاكم البلد لئلا يصير لنا عطب وامرت الرهبان بالخروج من المدينة وتوجهنا جملة الى الدير المذكور. وثاني يوم صباحاً كنّا مقبلين على دير مار انطونيوس قزحيا وقبل ان نصل الى الدير بنحو ميلين وقع صخورة كثيرة علينا ونحن فائتين الى ان قربنا الى الدير جداً وبعون الله وصلاة ابينا ما حكمنا شي منها. وسبب وقوع هذه الصخور هو ان في تلك السنة خريفها كان اكثره امطار وزلازل فالمياه حلحلت الاراضي والزلازل حركت الصخور التي ما هي لازقة ببعضها. وحين وصولنا توجّهنا لنأدّي الطاعة الى ابينا كالمعتاد فرأيته بشوشاً ما هو مضطرب اصلاً. فاستدمنا نعاون الاخوة في تنزيل التراب والصخور لنشيل الرهبان من تحت الردم الى المساء.

جرمانوس فرحات وجد قصائد جمة تتضمّن فوائد تاريخية المح اليها الشاعر قد تظهر معانيها جليّة اذا ما قوبلت بالنصوص. راجع ان شئت (صفحة ١١) القصيدة التي مطلعها:

وقيلةٍ جهلاؤها عقلاؤها في بلدة سفهاؤها فقهاؤها

التي ياخذ فيها الشاعر بناصر المطران عبدالله صديقه ويقرع الحساد بشعر آلم من السوط:

يا ايها المطران عبد الله بل يا من بهِ الارواح زاد رجاؤها
لا تخشَ من اعداء فضلك اذ عَوَوا لم يخفَ من شمس السماء ضياؤها

ترداد لك الحقائق التاريخية جلاء. وامثال هذه الفائدة التاريخية كثيرة في ديوان المطران

١) على نص ابي علي في ارض قرية كفرحورا بجانب الجسر الذي تحت دير كفرتين قال فيها جرمانوس فرحات شعراً نُقر على عتبتها (المشرق ٤: ٣٦٤):

قد طاحونٌ بزاوية بدت تجماً يدور السد بين فراشها
لقد اعتنى ببنائها وعمارها رهبان لبنان لدور معاشها

٢) جاء في سجلات الرهبانية ان يوسف البتن والاخ رافائيل من عائلة الحواقلة من زوق مصبح قُتلا تحت الردم

٣) لعلّها «ارضّيهم»

فامر سرًا الكلارجي ان يأخذ فرشتي الى قلايته وبعد ساعة من الليل هجمنا (١ من الاشغال فارسل طلبني ونبّه ان لا احد يجي لناحية القلاية وبعد جلوسي التفت اليّ بهذا القول: كيف رأيت يا ولدي. فقلت لهُ: هذه تجربة ما لها تسلية. اجابني هو هكذا: انت ولد بعدك طفل الى متى اتعب معك انسيت يا توما حين قلت لك عن تجربة مزمعة أما قلت لك اني قاسيت تجربة بخراب وخسارة عظيمة وقتل. فقلت لهُ: نعم بالمسى هذه هي. قال: انصت لكي اخبرك. اعلم ان منذ فارقتني كان كل يوم عن يوم يزداد الوهم والحزن عليّ وبعض الاحيان كنت اظن اني اعدم حياتي من زود الضيق الذي كان يستولي عليّ وخاصةً في الليلة التي وقع الصخر واستدام هذا الى صلاة الليل وكنت في تلك الليلة وبعد الصلوة توجهت الى قلايتي هربًا من المياه الباردة التي في الكنيسة (٢ فاتى يوسف البتن وكشف لي افكاره كعتاده وكأن الله ارسلهُ ليودعني فاخذني سبات النوم بعد خروجه من عندي وانا في حد الحزن وبعد برهة من الزمان حسبت كأن الدير هبط فينا كلنا. فحين انتبهت حسبت في عقلي كأن واحدًا يقول لي: قم انتهت وانقضا الحكم. وحال انتباهي رأيت ذاتي فرحان كأني ما عرفت الحزن ابدًا وهذه كانت التجربة التي اخبرتك عنها يا توما. فقلت انا لهُ: بعد عندك غيرها تبشرنا بها. اجابني: هي ضهرك للسياط والمكافحة عن اخوتك

وبعد هذا ابتدا يبالغ في السيرة باضعاف ما ذكرت لكم سابقًا. اخيرًا حين اتى فصل الصيف توجه الى زيارة الديارة وكان مرئيس قزحيا في ذلك الوقت القس تخايل اسكندر الهدناني (٣ وفي تلك الايام وصل ليدي مكتوب مرسل من مجمع انتشار الايمان باسم ابينا العام ففتحته لاني كنت متصرفًا بعمل ذلك بامره لكي اذا انوجد مكتوب وكان فيه قضاء اشغال اقضيها من دون مكاتيب الرهبان السريّة. ورأيت في هذا المكتوب شيئًا يحزن القلب مضمونه: قد بلغ الى مسامع الكرسي الرسولي

---

١) كذا في نسختنا ونظن الصواب رجمنا

٢) اعلم ان دير مار انطونيوس قزحيا صخره دلف في تلك السنة اكثر من كل السنين (حاشية للمؤلف)

٣) جعل رئيسًا عامًا سنة ١٧٢٣

والى هذا المجمع المقدس انكم عاصون على البطريرك ورؤساء الطائفة. المراد قد امر هذا المجمع المقدس ان القوانين المجموعة من سير الاباء الغربيين اي مثل اليسوعيين(١ والكرمل مراده ان تبطل القوانين المذكورة (٢ وتكونوا في طاعة السيد البطريرك الخ. فحالًا ترجمت المكتوب وارسلته لهُ. وحال وصول المكتوب ليده توجه لعند البطريرك لدير مار شليطا لان البطريرك كان هاربًا من جبة بشراي وبعد مواجهته تراقيا بالكلام لان خراب الرهبنة كان يزعج فؤاد عبدالله. فبعد الخطاب آخر كلام عبدالله للبطريرك كان هكذا: « ان كان هذا الامر يجري ويتبدَّدوا كزعكم فالكهنة منهم يصيرون خوارنة في الضيع وتلتزمون في معاشهم والرهبان الذين بلا رسامة يقلعون الثوب ويمضون الى بيوتهم يتزوجون لان نذرهم على موجب هذا القانون المثبَّت من سلفائك فاسخ. فاذا ابطله الكرسي الرسولي ما بقي الرهبان يلتزمون بالنذر ». وحين سمع البطريرك هذا الكلام تآنس مع الرئيس بقوله: انا احامي عنكم في رومية وكانت هذه حيلة منهُ للترقيد. وفي اثناء ذلك امره بامر قاطع انهُ لا يبرح من دير لويزه الى ان يخبره وقال لهُ ايضًا: اني اريد ارسلك مطرانًا وتكون عندي لتدبير الطائفة. فنزل عبدالله الى لويزه. وفي تلك الايام مشايخ عجلتون كانوا طالبين مطرانًا لان مطرانهم كان فُقد

وبعد ان توجه عبدالله الى لويزه في ذاك النهار ذاته ارسل البطريرك الى مشايخ عجلتون واخبرهم ان مراده يرسم عليهم مطرانًا الرئيس عبدالله قراعلي الحلبي وان المذكور نزل الى لويزه ارسلوا من قبلكم اناسًا ليحرسوه لئلا يهرب. وهكذا صار لان

---

١) من طالع قوانين الرهبانية اللبنانية وجد فيها فِقَرًا ونصوصًا منقولة بالحرف الواحد عن قوانين الرهبانية اليسوعية

٢) قال الاب الرئيس في كراسه (سلسلة ١٩٣): وبعد ايام اخذت اتذاكر مع السيد البطريرك [يعقوب] في امور الرهبنة فرأيت نبته ان يفسخ الرهبنة ويبطل الرئاسة العامة ويجعل كل دير يقوم بذاته بزعمه ان هذه هي رهبنة المواريث وهذا الاوفق لتدبير الرهبان والكنيسة. فلما سمعت كلامه مانعت. . . » وكأن المير الروماني اكليمنضوس الثاني عشر قد المح الى هذا في براءة تثبيت القوانين تاريخها ٣١ اذار ١٧٣٢ (اطلب كتاب القوانين المطبوع في رومية سنة ١٧٣٥ باللاتينية والعربية صفحة X و XI ورسالة المير الاعظم الى البطريرك يعقوب والاساقفة الصفحة ١٤١—١٤٢)

في تلك الليلة نزل احد المشايخ ومعهُ رجال قعد في الدير المذكور. ولمَّا استحسنَ عبدالله ان ما بقي فيهِ مهرب ورأى رهبته مضروبة ضربة قاتلة وعرف ضمير البطريرك ونيته وما بقي لهُ مناص ولا مهرب التجأ الى الصلوة في الكنيسة ودلم على ذلك ثلاثة ايام صائماً مصليًا وقتلا تطيل الخطاب اخيرًا اعتمد على عمل طرائق الاباء عند اضطرابهم كانوا يلتجئون الى درع التواضع بطلب المشورة من غيرهم. والحال ان ما كان عنده في ذلك الوقت احد من اعيان رهبنته حاضرًا في ذلك الدير لان الدير كان بعده في ابتدائهِ بمنزلة منزل فارسل طلب المرسلين القريبين اليهِ مثل الرهبان اليسوعية (١ وغيرهم من المرسلين واعرض القضية بين يديهم وطلب منهم المشورة الواجب عملها. وسبب طلبهِ للمرسلين بالعجل لان البطريرك ارسل لهُ امرًا ثانيًا في التوجه الى عنده والذين جابوا الامر كانوا مشايخ ومعهم رجال خلاف الذين كانوا في الدير. فلما رأى كثرة المشايخ والرجال في الدير طلب منهم مهلة للمشورة وارسل دعا المرسلين كما ذكر اعلاه. فالمرسلون بعد ان فهموا كلّ شي حكموا عليهِ بانهُ ملزوم يطيع وطاعته يرضي الله وينفع رهبته لان حين شاورهم اجتمعوا مع بعضهم وبعد المفاوضة اكثر ارائهم كانت ان هذه الطائفة محتاجة الى رئيس كهنة مثل هذا. واما الرهبنة ففيها اناس كفوٌ لتدبيرها وحمايتها وخاصةً بسيرتهم الصالحة حاشا ان الله يتخلّى عنهم وهذا كان يتكلمه المرسلون علانيةً امام الغير وكانوا يوصون المشايخ ليأخذوه ويرسموه بالعجل وناهيك من فرحة عند اولئك اي المشايخ. والمرسلون والعوام كانوا فرحين متهللين. واما عبدالله والرهبان القلال الذين في لويزه كانوا في البكاء والنواح والصراخ بهذا المقدار حتى ان كثيرين من الحاضرين من مشايخ ومرسلين وغيرهم ابتدأوا ان يهطلوا الدموع من نظرهم الى بكاء اولئك. وعبدالله كان احد المرسلين اليسوعيَّة ليستقيم في لويزه ذاك النهار ليسلي الرهبان بان يسلموا لمشيئة الله. والابلغ من ذلك لما وصل الخبر الى بقية الديورة فذاك ابقيه الى القارئ لان المناحة التي صارت مدة انوف من خمسة عشر يوماً انا عاجز عن ايضاحها. واما من بعد رسامته التي صارت سنة ١٧١٦ في ١٧ من شهر

---

١) لا شك انهُ دعا اليسوعيين القاطنين في مدرسة عينطورة وكان رئيسهم الاب توفيل بوناسور. اما الاب انطون ناخي الماروني اليسوعي فكان رئيساً على دير طرابلس

اطول لي ان صار المجمع العام فالذي حدث عليك قراءته في تواريخ الرهبنة لان هذا المختصر القصد فيه سيرة عبدالله لا غير

هذا ما اخبرت به بالمختصر عن سيرة ابينا وسيده . واذا اردت اوضح كل شيء بالتدقيق فذاك يطول شرحه لكن ابقيت النتائج مما ذكر الى القارئ . ولكن رأيت الانسب اني ابرهن عن فضائله التي اقتناها بنعمة الله وجهاده وذلك لاتمم شور ونصح من هو ذو فطنة وعقل وتمييز ابلغ مني لان اذا كان الهنا ممنا لا محالة ان بالتواضع والاقرار بضعف الخليقة ننال الفطنة بالهامه تعالى لنخبر عن سيرة محبي الله الحقيقيين وبما اني عاجز عن معرفة فضائله الداخلة وسبب عجزي هذا اني اقر ولا اكذب بعدم امتثالي بسيرته والابلغ في سيري المعوج عن رشده لي في كل تلك المدة التي كنت معه

فاقول اولًا الفطنة التي اوهبها الله الى ابينا عبدالله كانت تفوق عقول كثيرين والاولى ان اقول انه بذلك كان فريد عصره واريد ان ابرهن لك عن ذلك بقليل من الخطاب يا ايها القارئ . اولًا رشده للمبتدئين في الرهبنة كان يفوق عقول السامعين والرهبان الذين تقدموا في الفضيلة والزمان عن غيرهم كان يرشدهم بنوع آخر لم يتميز عن رشد الاباء الاقدمين . وفي زمانه اقام محبة مقابل دير مار انطونيوس قزحيا ووضع بها ثلثة اثمار احدهم يسمى انطونيوس من دلبتا فهذا السعيد جاهد في هذه المحبة جهادًا هذا مقداره حتى من سيرته تيقّنت الرهبان وآمنت فيما اخبروا به في بستان الرهبان عن جهاد الاباء الاقدمين وعن الحبساء الاولين وجهاداتهم . ومرشد هذا السعيد انطونيوس الذي فيما بعد انتقل الى الرب بسيرة مقدسة كان ابانا المشار اليه . (واما سيرة هذا السعيد القس انطونيوس فهي موجودة في تواريخ الرهبنة من اراد يعرفها فليقرأ التواريخ) لان كان معه موهبة في الرشد لكل ذي قدر وقياس . في رشده للديورة المشترك معاشها كان شبيه مار انطونيوس الّا قليلًا . وفي رشده للحبساء اقدر اقول انه كان شبيه بالقديس اسحق . واما رشده للعوام وغيرهم فذلك سوف يظهر بيانه وهو مطران . وان ظننت ايها القارئ اني ابالغ في قولي لا تظن اني كتبت شيئًا الذي ما نظرته بعيني من اثار رشده لان حين دخلت انا للرهبنة كان موجود آباء الذين كانوا متقدمين في الفضيلة واقدر اقول في سيرة القداسة

اولًا القس يوسف البتن هذا كان بلغ الى تواضع عميق وهذيذه الروحي لم كان

السيد عبد الله قراعلي مطران بيروت (١٦٧٢-١٧٤٢)

نقلاً عن صورة قديمة اخذها بالرسم الشمسي الاديب يوسف افندي خطار غانم
واثبتها في برنامج اخويّة القديس مارون (ص ١٢١)

يبطل وكان أصطي حقاً في ذكر الموت بهذا المقدار حتى امرارًا عديدة حين يكون على المائدة كان يحس فيه بهذا المقدار حتى انهُ لم يعد يقدر يأكل. وهذا ما نظرتهُ انا مرارًا شتى. واما خارجاً عن المائدة اذا اتاه ذكر الموت كان حالًا يتغيَّر وجههُ وامرارًا شتى كان يغشى عليهِ من غير ان جسمه يتحرَّك بشيء. وصلاته العقلية كانت اربع ساعات في الليل والنهار ما عدا الهذيذ المتصل. وكان في كل ليلة يمضي يكشف افكاره الى ابيه عبدالله ويأخذ صلاته. والابلغ من هذا ان كل رئيس كان يتولى على الدير الذي هو فيهِ كان يسلك معهُ كمثل سلوكه مع ابيهِ عبدالله. وكنت ترى اكثر الاوقات هذا السعيد جاثيًا في المائدة الى خلوص العشاء. وهذا الحادث كان الرؤساء يستعملونهُ معهُ اولًا لتمكينه في التواضع والثاني لاجل المثل الصالح لمام الاحداث وغيرهم. ومع هذا كان مدارك تعب الجسم في خدم الدير الدنية. وحبه للرهبان كان فريدًا لانهُ كان يدور قلاليهم في غيابهم وينظفها. وملاحظته للرهبان جمةً وافرادًا ورشده ووعظه لهم بكل تواضع لب وهربه من الكرامات والوظائف العالية باي نوع كان يعسر توضيحه على الذي مثلي. وطاعته للرؤساء الذين اتوا بعده الى الرهبنة كانت فريدة. واما طهارته فيعسر لساني عن وصفها يكفيك هذا ايها القارئ انني لم اقدر ان اقول الَّا هذا وهو نفس طاهرة في جسم ميت

(التتمة في العدد القادم)

غَرَق بغداد

لحضرة الاب انستاس الكرملي (تتمة)

ولما شاع خبر انهدام أسوار المدينة التي كانت تحصّن دار السلام وانتشر في انحاء الدولة طولًا وعرضًا شمالًا وجنوبًا الزمت الدولة العلية والي آمد (وهي ديار بكر) وكان يومئذٍ مرتضى باشا. ووالي كركوك والموصل ان يساعدوا والي بغداد بعساكرهم حماية للمدينة ودفاعًا عن اسوارها ريثما تُبنى البروج والقلاع على ما كانت عليهِ سابقًا. فجاءت الجنود واقامت في السهول العالية من سهول البلدة وبعد ان احتلُّوها مدة قصيرة امر السلطان الوالي مرتضى باشا بالذهاب الى الانضول لامور مهمَّة تستلزم حضورهُ هناك.